صيدا

تقع صيدا على بعد ٤٥ كلم الى الجنوب من بيروت وتُعتبر من اعرق مدن الساحل اللبناني. بيد ان تاريخها القديم ما زال يكتنفه الغموض بسبب قلة اعمال التنقيب الاثرية التي تناولتها من جهة، وبسبب الهدر الذي تعرض له تراثها من جهة ثانية، ولا سيمّا في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين على يد هواة الكنوز والاشياء الاثرية. الامر الذي يفسّر وجود عدد لا بأس به من الروائع الصيدونيّة في المتاحف الاجنبيّة والمجموعات الخاصة.

واذا كانت عاصمة الجنوب وثالث المدن اللبنانيّة قد تحوّلت اليوم الى مركز عمراني وتجاري نشط، فانها ما تزال تحتفظ بالكثير من خصائص المدن الساحليّة التقليديّة. فهي مدينة مفتوحة على البحر من خلال مرفأ يحتل المرتبة الثالثة بين مرافىء لبنان، وتشرف عليها قلعة تاريخيّة تعود الى القرون الوسطى، فيما تحيط بها مزروعاتها وبساتينها المغروسة موزا وحمضيّات. اما احياؤها القديمة، فما تزال تعبق بأريج القرون

قلعة البحر

الوسطى ، فيما تنتشر على جوانب طرقها الرئيسيّة المحال الحديثة التي تتكدّس فيها جميع انواع البضائع والحلويات.

رحلة عبر التاريخ...

كانت المستوطنة الصيدونية القديمة تقوم على رأس صخري تقابله جزيرة صغيرة . فما أن تمّ ردم المضيق الذي يفصل بينهما حتى تسنّى للصيدونيّين اقامة مرفأين على جانبي البرزخ، احدهما ينفتح الجنوب، فعُرف بالتالي بالمرفأ المصري، والآخر الى الشمال ، ما زال موقعه يُستعمل حتى اليوم. ويبدو من خلال بعض الاسبارات واللقى الأثرية ان اقدم الشواهد على التوطّن في بقعة صيدا يعود الى عصر الحجر والنحاس (الكلكوليتي والانيوليتي)، في الالف الرابع ق.م. وقد عُثر على هذه الشواهد في موقع «قلعة المُعزّ»، المعروفة ايضا بقلعة البرّ، كما عُثر على بعضها الآخر في موقع «الدكرمان»، على بُعد نحو كيلومتر واحد الى الجنوب من صيدا.

غير ان النصوص لم تتحدّث عن صيدا الا بدءا من القرن الرابع عشر ق.م. عندما ورد ذكرها في رسائل «تل العمارنة»، وهي مجموعة المراسلات الدبلوماسية التي كان ملوك المدن الكنعانيّة ومجالس شيوخها يبعثون بها الى الفرعون لعرض واقع حالهم عليه. ويتبيّن لنا من خلال عدد من الارشادات التاريخيّة ان اقتصاد صيدا ، ولا سيّما علاقاتها التجارية مع مصر، قد بقي على ازدهاره على الرغم من الجزية التي كان على اهلها دفعها للبلاط الأشوري، كما تفيدنا بذلك النصوص الاشورية.

وقد بلغت تجارة صيدا، في غضون الألف الاول ق.م. درجة متميزة من الازدهار والانتشار، الامر الذي جعل المدينة تحتلّ مركزاً مرموقاً بين المدن الفينيقية، بحيث أن الاغريق، في تلك الايام، كانوا يُطلقون اسم «صيدونيّين» على جميع سكّان فينيقيا. ولعبت صيدا دورا بارزاً في ايام الدولة الفارسيّة (٥٣٩ - ٣٣٢ ق.م.) لا سيّما وانها كانت تمدّ الفرس، الطامحين الى فرض سيادتهم على حوض

مرفأ صيدا

المتوسّط الشرقي على حساب المصريّين والاغريق، بالمراكب والملاحين. فما كان من الفرس الا أن ردوا الجميل الى صيدا، فاقاموا فيها قصرا على نمط القصور الفارسيّة كما انشأوا فيها محمية طبيعية ذاع صيتها، كانت تعج بالحيوانات الغريبة. وفي اثناء تلك الحقبة المشرقة من تاريخها، قام ملوكها ببناء معبد «اشمون» ربّ صيدا الاعظم، على بعد نحو ثلاثة كيلومترات الى الشمال الشرقي من المدينة، حيث ما تزال آثاره باقية حتى اليوم.

وعلى غرار صور، جارتها الجنوبيّة، اشتهرت صيدا بصناعة الزجاج والصباغ الارجواني، وقد كان صنّاعها يستخرجونه من المُرَيق، وهو نوع من المحار كان يعيش عند الشاطىء . وما زالت صيدا تحتفظ حتى اليوم بأثر جليل يُنبىء عن اهميّة صناعة الارجوان الذي ذاع صيته ورفع امجاد الصيدونيّين ، وهو عبارة عن تلّة اصطناعية تقع عند سفح تلّ «قلعة المعزّ» الجنوبي وتتألّف من بقايا المحار الأرجواني وكسره.

بيد ان الرقيّ التي بلغته صيدا في تلك الايام تسبب لها بالمصائب. فعلى أثر ثورة ضدّ الفرس، نجم عنها تدمير قصر الحاكم الفارسي، حاصر الملك «ارتحشتشا الثالث» المدينة عام ٣٥١ ق.م. ثمّ أحرقها، فهلك حوالي أربعون ألفا من أهلها. وخرجت صيدا من تلك المحنة وقد اعتراها الوهن، فما ان جاءها «الاسكندر الكبير» عام ٣٣٣ ق.م. حتى فتحت له ابوابها.

وفي غضون العصر المتأغرق والعصر الروماني، حظيت

خريطة الموقع

«صيدا المقدسة» بشكل من اشكال الحكم الذاتي، فكانت تسكّ عملتها، ثمّ تحوّلت في بداية القرن الثالث للميلاد الى مستعمرة رومانيّة يتمتع اهلها بحقوق المواطنيّة الرومانيّة. وفي تلك الحقبة استعادت المدينة نموّها الاقتصادي وحيويتها التجاريّة وازدانت بالمباني والعمائر التي لم يبقَ منها آثار ظاهرة.

وفي عام ٥٥١ ب.م. تعرّضت كسائر المدن الساحليّة لأهوال الزلزال العنيف الذي ضرب المنطقة في تلك السنة، بيد ان الاضرار التي لحقت بها لم تكن توازي ما تعرّضت له بيروت من جراء الزلزال عينه، بحيث تمكنت من حضن مدرسة الحقوق الشهيرة التي لجأت اليها.

وعلى اثر الفتح الاسلامي، دخلت صيدا في كنف الدولة

الاسلاميّة عام ٦٣٦، وبقيت على حالها، مدينة صغيرة مزدهرة، حتى سقوطها في ايدي الصليبيّين الذين ملكوها بين عامي ١١١٠ و ١٢٩١. فكانت في ايامهم احدى اهم بارونيّات «مملكة القدس اللاتينية».

وفي ايام المماليك، ومن بعدهم في ايام العثمانيين في اوائل القرن السادس عشر، استعادت صيدا مكانتها واهميتها، ولا سيّما في اوائل القرن السابع عشر، في ظلّ حكم الأمير فخر الدين المعني الثاني (١٥٧٢ـ١٦٣٥) الذي جعلها عاصمة له عام ١٥٩٤. فرمّم اسوارها واقام فيها قصراً وحمامات وخانات، وشجّع فيها النشاط الاقتصادي وجعل منها محطة تجاريّة هامة بين أوروبا وبلاد الشام.

الحفريات الأثرية

شهدت صيدا في غضون القرن التاسع عشر حركة اكتشافات أثريّة على درجة عالية من الاهميّة. ففي عام ١٨٥٥، عُثر في مغارة «أبلون» الى الجنوب الشرقي من المدينة، على ناووس الملك «اشمون عزر» الموجود حالياً في متحف اللوفر في باريس. وبعد مضيّ بضع سنوات، عام ١٨٦٠ـ١٨٦١، أجرى البحّاثة الفرنسي «إرنست رينان» أولى حفرياته المنهجيّة وتفقيباته الاثرية في نطاق المدينة وفي جوارها. وفي عام ١٨٨٧، قام مدير المتحف السلطاني في استنبول، حمدي بك، بإجراء حفريات في منطقة المقابر الملكيّة، حيث عثر على ناووس الملك «تبنيت» وعلى اربعة نواويس اخرى من الرخام، تُعتبر اليوم من روائع متحف استنبول. وبين عامي ١٩٠٠ و ١٩٠٤، تم إجراء الاسبارات الأولى في موقع «اشمون» حيث عُثر على مجموعة من الرقم الفينيقيّة وبين عامي ١٩١٤ و١٩٣٩، قام عدد من الاثريين الفرنسيّين، ومن ابرزهم «جورج كونتينو» و«موريس دونان» بإجراء حفريات في صيدا عينها وفي جوارها. وغداة الاستقلال أخذت المديريّة العامة للآثار على عاتقها متابعة مهمّة إزالة الغبار عن آثار صيدون.

معالم لا بدّ من زيارتها

١ – قلعة البحر(١)، يعود تاريخ بناء هذه القلعة الى القرن الثالث عشر م. فعلى احدى الجُزيرات المواجهة للمرفأ الشمالي، أقام الصليبيون قلعة صغيرة تتصل بالشاطئ، بواسطة جسر حجري، نصفه ثابت ونصفه الآخر متحرّك، بحيث انه كان بامكانهم رفعه لعزل القلعة عن البرّ. ولم يبقَ من آثار الجسر القديم الا الدعامة الشماليّة المدبّبة، وهي الأقرب الى القلعة. اما الدعامتان المدببتان الأخريان، فقد بناوهما على الطراز عينه في أيام الانتداب الفرنسي على لبنان، بعد ان دمرتها عاصفة هوجاء عام ١٩٣٦. والى فترة الانتداب عينها، يعود بناء الدعائم الاخرى القريبة من الشاطئ. اما القلعة فقد شُيّدت على مراحل بين عامي ١٢٢٧ و ١٢٩١، تاريخ سقوط صيدا في يد المماليك، واستعملت في بنائها حجارة وعناصر بنائية اخرى تم اقتلاعها

خان الفرنج

من أبنية تعود الى فترات سبقت العصر الصليبي. وتُظهر حالة القلعة الحاضرة الإضافات والترميمات التي طرأت عليها في عصر المماليك، ولا سيّما منها البرج الغربي. أما المسجد الصغير الذي يقع على مقربة من بقايا كنيسة القلعة الصليبيّة، فيعود الى العهد العثماني، وقد أُقيم بُعيد سنة ١٨٤٠، وهي السنة التي تعرّضت فيها القلعة للقصف من قبل البحرية البريطانية.

٢ – استراحة صيدا، وهي مُنشأة سياحية تقع على شاطئ البحر بمواجهة القلعة البحرية وتابعة لوزارة السياحة. تديرها حاليا شركة خاصة كمطعم. كانت في الاصل دارة ما تزال تحتفظ بعقودها القديمة.

٣– المرافىء القديمة، كان لصيدا في ما مضى مرفآن، احدهما ينفتح باتّجاه الجنوب، وقد عُرف لهذا السبب بالمرفأ المصري، وكان يقع في مواجهة قلعة البرّ وتلّة المُرَيق، وهو اليوم مطمور تحت الرمال. اما المرفأ الشمالي، الذي ما زال بعضه يُستعمل حتى اليوم، فقد عمد فخر الدين الى تعطيله قبيل أسره على يد السلطات العثمانية سنة ١٦٣٣ لمنع اسطولها من الدخول اليه.

٤– الاسواق، تقع اسواق صيدا داخل المدينة القديمة، في الخوز القائم بين قلعة

البحر من جهة وقلعة البرّ من جهة اخرى. وما زالت تحتفظ بأزقتها وعقودها وحرفها الموروثة والمتوارثة منذ القرون الوسطى.

٥– خان الرز (١٦)، وهو صورة مصغرة بالشكل والطراز عن خان الافرنج، وهو ايضا من ابنية عهد الامير فخر الدين المعني الثاني. وقد استخدم مأوى للمسافرين ومستودعاً للرز المستورد من مصر.

٦ – خان الفرنج (٢)، هو واحد من عدّة خانات أقامها الأمير فخر الدين المعني الثاني في بدايات القرن السابع عشر لاستقبال التجّار والبضائع. ويعتمد تصميمه التخطيط العام لمثل هذا النوع من المنشآت. فهو يتألّف من فناء داخلي مستطيل يتوسطه حوض مياه، ويحيط به طابقان، الارضي للبضائع والدواب والعلوي للنزلاء. وقد كان هذا الخان مركز النشاط التجاري في صيدا حتى القرن التاسع عشر، ثم تحوّل الى مقر الآباء الفرنسيسكان، فإلى ميتم للبنات تديره جمعيّة راهبات «مار يوسف الظهور» . أما اليوم فيشغله بعد ترميمه سنة ١٩٩٢ المركز اللبناني الفرنسي للحوار الثقافي الاوروبي العربي. تقام فيه عدة نشاطات ثقافية، فنية وتراثية كما الندوات والمؤتمرات والمعارض.

٧ – قلعة البرّ (١٧) ويطلق على هذه القلعة ايضاً اسم «قلعة القديس لويس» وهو «لويس التاسع» ملك الفرنجة الذي قاد الحملة الصليبيّة السابعة (١٢٤٨– ١٢٥٤)، وأمر بترميم عدد كبير من القلاع وتحصينها، ومن بينها، قلعة صيدا. وتحتلّ هذه القلعة قمّة التل القديم الذي يُشرف على المدينة من ناحيتها الجنوبيّة ويختزن في جوفه بقايا مراحل تاريخها المتعاقبة. وقد اقيمت القلعة في هذا الموقع على أنقاض قلعة اخرى أقدم عهداً تعود الى العصر الفاطمي، وتنسب الى الخليفة المعزّ (٩٥٢ –٩٧٥) والقلعة اليوم خربة، ولم يبق فيها الكثير من آثار البناء الصليبي، بسبب اعمال الترميم التي طرأت عليها في الفترات اللاحقة والتي كانت تستعمل فيها الحجارة الصغيرة الحجم والرديئة القطع. ويبدو ان الجزء الاكبر من هذه الترميمات يعود الى ايام فخر الدين المعني الثاني، في الربع الأوّل من القرن السابع عشر. اما مخطط القلعة، فيُشبه صورة القوس، وفي وسط انحناءة هذا القوس يقوم البرج الكبير. وتنتشر على سفوح التل الاثري اعمدة تعود الى العصر الروماني.

٨– تلّة المُرَيق (١٨)، تقع هذه التلّة الى الجنوب من القلعة البريّة. وهي عبارة عن مرتفع اصطناعي يصل طوله الى نحو ١٠٠ متر وارتفاعه الى نحو ٥٠ متراً، وقد تكون من جرّاء تراكم بقايا اصداف المريق، وهو نوع من المحار كان يستخرج منه الصباغ الأرجواني في العصر الفينيقي. ومن خلال العثور على بعض بقايا الفسيفساء على قمّتها يبدو ان التلة تحوّلت في العصر الروماني الى منطقة سكنيّة وتغطي انحاءها اليوم المساكن والمدافن.

٩– المقابر: أهمها مقبرة مغارة «أبلون» التي عثر فيها على ناووس الملك الصيدوني «اشمون عزر» الثاني، وهو من القرن الخامس قبل الميلاد وموجود حالياً في متحف اللوفر وقد عثر في منطقة الاياعة على النواويس الرخامية الشهيرة: «ناووس الاسكندر» و«ناووس الليقي» و «ناووس المرزبان» و «ناووس النوّابات» وهي معروضة في متحف استنبول. في عين الحلوة عُثر على المقبرة الثالثة التي احتوت على مجموعة نادرة من النواويس الرخاميّة المومياتيّة الشكل التي تُعتبر من أهم موجودات المتحف الوطني في بيروت.

الجوامع

١٠ – الجامع العمري الكبير(٨)، يقوم هذا الجامع قرب الشاطئ الى الجنوب الغربي من الاسواق القديمة. ويتألّف من بُنية مستطيلة ذات اربعة مجازات، وتدعمها من الخارج دعامات متينة. واذا كان من المعارف عليه تقليدياً ان البناء

مصبنة عودة

الجامع العمري الكبير

كان في ما مضى كنيسة تمّ تحويلها في أيام المماليك الى جامع، فإن واقع البناء العمراني يدل على انه كان قاعة من قاعات بيمارستان القديس يوحنا الذي بناه فرسان الاسبتاريّة في غضون القرن الثالث عشر. اما حالته الحاضرة فهي مزيج من البُنى الصليبيّة والمملوكيّة، إضافة الى الاصلاحات التي طرأت عليه بعيد سنة ١٨٢٠، على أثر الدمار الذي ألحقته به عاصفة هوجاء. ويظهر الجزء الشمالي الذي يحتوي حوض الوضوء بعض العناصر البنائية القديمة التي استُعملت فيه.

١١- جامع باب السراي (٣)، يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من الساحة، في سنة ١٢٠١ ويُعد من اقدم مساجد صيدا، قبّته محمولة على عقود ضخمة.

١٢- جامع ابو نخلة (٤)، كان هذا المسجد في الاساس زاوية صوفية. تعلو المسجد مئذنة قليلة الارتفاع تشبه الى حد بعيد في هندستها المآذن المغربية.

١٣- جامع الكيخيا (٥)، بناه «كتخدا مصطفى» قبل سنة ١٦٢٤م. يمتاز بعلو سقفه، وارتكازه على عدد قليل من الاعمدة، منبره من الرخام الابيض.

الكنائس

١٤- كنيسة القديس نقولا (١٤)، وهي كنيسة الروم الارثوذكس المبنية سنة ١٦٩٠ م. وسقفها معقود ومذبحها بيزنطي الطراز، وعمارتها متينة، ولا يزال الروم الاورثوذكس يقيمون طقوسهم الدينية فيها. اما النصف الآخر المخصص للروم الكاثوليك فهو مغلق.

١٥- كنيسة مار الياس (١٠)، للموارنة تحوّل هذا المبنى من مصبنة الى كنيسة في العام ١٦١٦ م.

١٦- مطرانية الروم الكاثوليك: بنيت فوق اثار معبد الإله ميترا.

الحمامات

١٧- حمام الشيخ (٦)، يقع قرب جامع الكيخيا، ذكره الرحالة عبد الغني النابلسي عند زيارته لصيدا بالقرن السابع عشر، بلاطه ناري ومغاطسه منمقة.

١٨- حمام الورد (٧)، بالقرب من الجامع الكبير، بناه ال حمود سنة ١٧٣٠م. يمتاز بزخارفه وقاعته الواسعة.

معالم أخرى

مصبنة عودة (١٣)، امتلكها آل عودة سنة ١٨٨٠م. وهي مؤلفة من ثلاثة طوابق، يشغل معمل الصابون جزءاً من الطابق الارضي حيث «التنور» و «المسطا». لصب سائل الصابون وتخفيفه، وقد اعاد آل عودة تأهيلها مؤخرا وتضم متحفاً للصابون، وللاشغال الحرفية، وقاعة لادوات الاستحمام، ومسكن آل عودة القديم، وتعرف جميعها باسم «حارة عودة».

قصر دبانة (١٥)، القائم في آخر سوق الصاغة، بناه آل حمود في سنة ١٧٣٠م. وامتلكته آل دبانة سنة ١٧٦٥ م. يتألف من ثلاث طبقات تقوم في الطبقة الثانية منه شرفات تطل على الفناء الداخلي وتزين جدرانه النقوش والخطوط الجميلة، وزجاج نوافذه ملون وسطحه مكسو بالقرميد، وملحق به حديقة صغيرة.

متحف رياض الصلح: أول رئيس وزراء في لبنان بعد الاستقلال. أقيم المتحف في المنزل الذي ترعرع به ويروي مسيرته.

لبنان ـ وزارة السياحة
٥٥٠ شارع مصرف لبنان، ص.ب. ٥٣٤٤/١١، بيروت ـ لبنان
هاتف: ٩٦١١٣٤٠٩٤٠/١/٢/٣/٤ ـ فاكس: ٩٦١١٣٤٠٩٤٥
الخط الساخن: ١٧٣٥
العنوان الكتروني: Web site: www.destinationlebanon.gov.lb
البريد الكتروني: E-Mail: mot@lebanon-tourism.gov.lb
© الحقوقُ محفوظةٌ لوزارة السياحة ـ لبنان
النص العربي : د. حسان سلامه سركيس
تنسيق: زينة حدّاد
يوزع مجاناً

Designed & Printed by Chemaly & Chemaly s.a.l. 2006

لبنان
صيدا

لبنان
وزارة السياحة